


# مجلـــــــــــة

# آداب الرافدين

علميّـــة محكّمـــة

فصليـــّة

تصـــدر عن كليـــة الآداب

**العـــدد: الواحد والسبعون**

**السنة: السابعة والأَربعون**

الموصـــــــــل

**١٤٣٩هـ / ٢٠١٧م**

توجــه المراســلات باســم رئيــس هيئــة التحــرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com




# آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: الواحد والسبعون — السنة: السابعة والأربعون

# قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار.
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول.
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

# المحتويـــــــــــات

# فقهاء دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي

**أ.م.د. مصعب حمادي نجم الزيدي** *

**تأريخ التقديم: ٢٠١٣/٩/١٨**　　　　　　**تأريخ القبول: ٢٠١٣/١٢/٣**

**توطئة :**

يتناول هذا البحث حياة مجموعة من فقهاء المسلمين ويوضح دورهم العلمي والديني والسياسي والعسكري في الدولة الأيوبية على عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٦٥-٥٨٩هـ/١١٦٩-١١٩٣م) وهم الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون (ت:٥٨٥هـ/١١٨٩م) والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري (ت:٥٨٥هـ/١١٨٩م) والفقيه زين الدين علي بن نجا الدمشقي(ت:٥٩٩هـ/١٢٠٠م) والفقيه نجم الدين الخبوشاني(ت:٥٨٧هـ/١١٩١م). وسيتم الحديث عن سيرهم تباعاً وبالتفصيل في الصفحات القادمة من البحث .

**أولاً : الفقيه شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون :**

هو أبو سعد عبدالله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون بن أبي السري التميمي الحديثي الأصل الموصلي الشافعي عرف بالشيخ الإمام العلامة الفقيه البارع المقرئ الأوحد شيخ الشافعية قاضي القضاة شرف الدين عالم أهل الشام(١) ولد في مدينة الموصل في بداية سنة٤٩٢هـ/١٠٩٨م(٢) وقيل في رواية أخرى أنه ولد يوم الأثنين٢٢ ربيع الأول سنة٤٩٣هـ/١٠٩٩م وتفقه على جماعة من العلماء في الموصل

*** قسم التاريخ/كلية الآداب/ جامعة الموصل .**

(١) عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ ، تحقيق : خليل مأمون شيحا(بيروت:٢٠٠٢م)،ج٩، ص٤٣٧ ؛ أحمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق: يوسف علي طويل وآخر(بيروت:١٩٩٨م)،ج٣، ص٤١ ؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : محمد بن عبادي بن عبد الحليم ، ط٣(القاهرة :٢٠٠٣م) ،ج٢١، ص١٢٦ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن حامد الكاتب الشهير بالعماد الأصفهاني ، حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس وهو الكتاب المسمى الفتح القسي في الفتح القدسي(القاهرة :٢٠٠٤م)، ص١٩١ ؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا (بيروت :١٩٩٧م)،ج١، ص٢١٦.

أمثال الفقيه القاضي المرتضى الشهرزوري والفقيه وأبي عبدالله الحسين بن خميس الموصلي وبقي في الموصل حتى سنة٥٢٣هـ/١١٢٩م وبعدها انتقل إلى بغداد وتفقه على أسعد الميهني وأخذ أصول الفقه عن أبي الفتح ابن برهان الأصولي ثم غادرها إلى حلب سنة٥٤٥هـ/١١٥٠م ، ولم يلبث أن غادرها متجهاً إلى دمشق لدى دخول السلطان نور الدين زنكي(٥٤١-٥٧٠هـ/١١٤٦- ١١٧٤م) إليها سنة٥٤٩هـ/١١٥٤م غير أنه سرعان ما انتقل إلى حلب مرة أخرى فأقام فيها ودرس في جامعها وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس عنده عدد كبير من طلبة العلم وانتفعوا بعلمه. وكان فقيهاً من الطراز الأول ووصف بأنه من أفقه أهل عصره وأنه إمام أصحاب الإمام الشافعي آنذاك وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند السلطان نور الدين زنكي فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في مدن دمشق وحلب وحمص وبعلبك وغيرها ، كما ولاه قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر ومنحه الصلاحيات كافة ، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه(١) فضلاً عن أن السلطان نور الدين اختاره في سنة٥٦٦هـ/١١٧٠م ليكون معتمده وسفيره إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله(٥٦٦-٥٧٦هـ/١١٧٠-١١٨٠م) في بغداد(٢).

**دوره في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي :**

**١- علاقته بصلاح الدين الأيوبي :**

كان صلاح الدين على معرفة تامة بالشيخ الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون منذ أيام السلطان نور الدين زنكي فكلاهما نشأ في ظله وتحت رعايته خاصة صلاح الدين ، وكان الاثنان معاً من رجال الدولة النورية الأكفاء فابن أبي عصرون : كان يشتغل في مجال القضاء والحكم والافتاء والعلم والتعليم ، وصلاح الدين : كان يشتغل في مجال الحرب والأمور العسكرية ويوليها اهتماماً زائداً ، وتدل مجريات الأحداث منذ أيام

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص٤٢ ؛ تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (بيروت :١٩٩٩م)،ج٤، ص٨٥-٨٦ ؛ تقي الدين أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح ، تحقيق: محيي الدين علي نجيب (بيروت:١٩٩٢م)،ج١، ص٥١٣-٥١٤ .

(٢) شمس الدين يوسف بن قزاوغلي ، مرآة الزمان في تأريخ الأعيان (الهند :١٩٥٢م)،ج٨، ص٢٨٣ .

السلطان نور الدين زنكي أن العلاقات بين الرجلين كانت سليمة تسودها روح الود والمحبة والتقدير ، فقد عرف كل منهما الآخر حق المعرفة وبادله الاحترام بمثله وخير دليل على ذلك الرسالة التي أرسلها صلاح الدين من مصر إلى شرف الدين ابن أبي عصرون في بلاد الشام سنة٥٧٠هـ/١١٧٤م ولعل اختياره بالذات تفضيل له على غيره واعتراف بقدرته على التأثير في الأحداث ، لذا كانت رسالته تحمل في طياتها نوعاً من العتب عليه وأملاً في أن يعمل بجد لإفشال اتفاقية دمشق مع الصليبيين في السنة ذاتها ، وكان شرف الدين بن أبي عصرون لا يحبذ تلك الاتفاقية ولم يوافق عليها مع من وافق ولعله كان يعاني الألم النفسي نظراً للضعف والانقسام الذي أصاب المسلمين بل كان يرغب في قدوم صلاح الدين من مصر إلى الشام ليعملا سوياً بانسجام تام لتحطيم هذه الاتفاقية وتكثيف الجهود الإسلامية لتحقيق المعلن وهو طرد المحتلين الصليبيين من بلاد الشام(١) .

ويبدو أن ابن أبي عصرون كان يحبذ مجيء صلاح الدين من مصر إلى بلاد الشام بعد وفاة السلطان نور الدين زنكي واختلاف الأمراء من بعده ويؤيد هذا الرأي أمران الأول : أنه لم يوقع على الاتفاقية شأنه في ذلك شأن أمراء الشام وقضائه خاصة وأنه كان من الشخصيات الكبيرة ويتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع ، وثانياً : موقفه ضد الأمراء الذين طلبوا الاستمرار في معاداة الناصر صلاح الدين الأيوبي والعمل ضد قدومه إلى بلاد الشام الأمر الذي جعل صلاح الدين يوليه قضاء مصر(٢) ومهما يكن من أمر فقد توجه شرف الدين بن أبي عصرون مع الملك الصالح إسماعيل(٣) بن السلطان نور الدين زنكي من دمشق إلى حلب قبيل قدوم صلاح الدين إلى دمشق ، غير أنه لم يمكث طويلاً في حلب فعاد إلى دمشق ثانية في سنة٥٧٢هـ/١١٧٦م ، في الوقت الذي كان كمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق على عهد صلاح الدين يشرف على الموت الذي

---

(١) صادق أحمد ، المدارس العصرونية في بلاد الشام (بيروت:١٩٨٦م)، ص٢٩ .

(٢) المقريزي ، السلوك ،ج١، ص١٤٩ .

(٣) الملك الصالح اسماعيل : هو ابن السلطان نور الدين زنكي ، كان شاب حسن الصورة ومن أعف الملوك يشبه أباه في أمور كثيرة ، توفي في حلب ودفن بقلعتها في ٢٥رجب سنة٥٧٧هـ/١١٨١م . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٣٣٣-٣٣٤ .

وافاه في المحرم من السنة ذاتها بل كان من الذين غسلوه وكفنوه وسار على رأس المشيعين بجنازته(١) .

**٢- توليه القضاء في بلاد الشام**

عندما شعر القاضي كمال الدين الشهرزوري بدنو أجله فوض القضاء في بلاد الشام لابن أخيه أبي الفضائل بن يحيى بن عبدالله الملقب بضياء الدين ، ولم يسع صلاح الدين سوى الموافقة على هذا التفويض لأن ضياء الدين أهل للقضاء ليس إلا ولأن القضاء من المناصب العليا التي لا ينفع فيها التوريث ، وقد كانت لكمال الدين الشهرزوري جهود في تهيئة الأمور بدمشق لاستقبال صلاح الدين لأنه اعتقد أن صلاح الدين أكفأ من غيره من الأمراء المسلمين لمحاربة المحتل الصليبي ، وهذا العمل يعد من الأعمال المجيدة التي تحسب للقاضي الشهرزوري ، إذ وضع المصلحة العامة للمسلمين فوق كل اعتبار وفضل صلاح الدين على باقي الأمراء في بلاد الشام الذين وقعوا الصلح مع العدو الصليبي(٢).

أما ما يتعلق بالأسباب التي جعلت الناصر صلاح الدين الأيوبي يميل إلى تعيين شرف الدين بن أبي عصرون القضاء في بلاد الشام بعد وفاة القاضي كمال الدين الشهرزوري ، فهي كما يلي:

١. مكانة شرف الدين بن أبي عصرون العلمية والأدبية فضلاً عن ذلك كونه شيخ للمذهب الشافعي في عصره ، وقد شهد له معظم المعاصرين له بذلك (٣) وفضلاً عن كونه عالماً وشيخاً للمذهب الشافعي كان ((أقوم العلماء بالفتيا وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من مصالح الدين والدنيا))(٤).

---

(١) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال (القاهرة :١٩٥٣م)،ج٢، ص٥٠ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٤، ص٨٥ .

(٢) أحمد ، المدارس العصرونية ، ص٣١-٣٤ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٩١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩، ص٤٣٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢، ص٥٠ .

(٤) قوام الدين أبو الفتح بن علي البنداري ، سنا البرق الشامي ( وهو مختصر كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني ) ، تحقيق : فتحية النبراوي ( القاهرة : ١٩٧٩م) ، ص١٠٩ .

٢. حب الناصر صلاح الدين الأيوبي لأتباع المذهب الشافعي وتقديره لهم لاسيما وأنه كان شافعياً كونه مذهب وسطي وذلك كون بلاد الشام ثغر في مواجهة الصليبيين ، كما أنه أراد أن يوحد البلاد على أساس المذهب الشافعي تحت راية الخلافة العباسية في بغداد(١) .

٣. العلاقة الايجابية الحميمة التي جمعت بين الناصر صلاح الدين وابن أبي عصرون منذ عهد السلطان نور الدين زنكي ، واحتضان صلاح الدين لشرف الدين بن أبي عصرون عندما قدم إليه في دمشق وليس ذلك فحسب بل فوض له قضاء مصر سنة٥٧٠هـ/١١٧٤م ، كما وجه له كتاب في السنة ذاتها يحثه فيه على ضرورة التصدي لمعاهدة دمشق مع الصليبيين والسعي لحشد الجهود من أجل إفشالها ، فضلاً عن العلاقة الوثيقة بين صلاح الدين وابن أبي عصرون كون الأخير هو الذي تولى الإشراف على تزويج الناصر صلاح الدين بعصمة الدين خاتون أرملة السلطان نور الدين زنكي والتي كانت تقيم في قلعة دمشق سنة٥٧٢هـ/١١٧٦م(٢).

٤. رغبة شخصيات مهمة في دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي في إسناد منصب قاضي قضاة بلاد الشام إلى شرف الدين بن أبي عصرون أمثال القاضي الفاضل(٣) وزير صلاح الدين وكاتبه ومستشاره بل وذراعه الأيمن في بلاد الشام والذي كان تربطه علاقة مميزة بابن عصرون ، حتى أن ابن أبي عصرون كثيراً ما يخاطبه في مراسلاته بمجير الدين القاضي الفاضل دليلاً على احترامه وعلو شأنه(٤) وكذلك الفقيه عيسى الهكاري أحد كبار

---

(١) علي محمد الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (بيروت:٢٠٠٨م)، ص٣٢٧ ؛ عرب دعكور ، تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم (بيروت :٢٠١١م)، ص٢٧٧ .

(٢) شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، وضع حواشيه وعلق عليه : ابراهيم شمس الدين (بيروت:٢٠٠٢م) ،ج١، ص٢٣١ .

(٣) القاضي الفاضل : هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن محمد العسقلاني المولد المصري الدار ، ولد في سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، وتوفي سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م ، تولى الوزارة ورئاسة ديوان الانشاء في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي . ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣،ص١٣٣-١٣٨ ؛ وللمزيد من المعلومات حول هذه الشخصية . ينظر : هادية دجاني شكيل ، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته (بيروت :١٩٩٩م) .

(٤) البنداري ، سنا البرق ، ص١٠٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج١، ص٢٣١ .

أمراء الناصر صلاح الدين والذي تتلمذ على يدي عبدالله بن أبي عصرون والذي كان يميل إلى أستاذه ويتمنى أن يراه قاضياً لقضاة الشام[١] ومن دون شك أن هذه الشخصيات كان لها دور كبير في جعل صلاح الدين يميل إلى شرف الدين بن أبي عصرون ويرغب في أن يسند إليه منصب القضاء في الدولة الأيوبية ، فالناس فيما يذهبون ويهوون مشارب ومذاهب[٢].

٥. خطة شرف الدين بن أبي عصرون وأعوانه الذين أعلنوا أن ضياء الدين سيعزل وربما يناله المكروه فتحرج موقف الرجل ودفعه هذا العمل إلى تفضيل السلامة وقدم استقالته من القضاء والتي قبلت بسرعة ودون تردد ، مما يفسر لنا أن صلاح الدين يميل إلى شرف الدين ابن أبي عصرون مع أنه لا يريد الإحراج لضياء الدين وإقالته [٣] ومهما يكن من أمر فإن هذه الأسباب مجتمعة هيأت الظروف لأن يتولى شرف الدين بن أبي عصرون قاضي القضاة في جميع مناطق بلاد الشام الخاضعة لصلاح الدين الأيوبي سنة٥٧٣هـ/١١٧٧م ، وقد اشترط صلاح الدين على هذا التعيين أن يكون محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد داود نائب كمال الدين الشهرزوري في الحكم والقضاء قاضيان يحكمان وهما عن منابته يوردان ويصدران وتوليتهما بتوقيع من الناصر صلاح الدين الأيوبي نفسه[٤] على أن شرف الدين بن أبي عصرون لم يكن يشغل منصب قاضي قضاة دمشق وإنما أسند له الناصر صلاح الدين مهمة أخرى هي ناظراً لأوقاف دمشق ينظم أمورها ويدير شؤونها وليس ذلك فحسب بل ظل في منصبه مدة جاوزت عقداً من الزمن (٥٧٣-٥٨٥هـ/١١٧٧-١١٨٩م) وخلالها((عظمت رياسته ومكانته ، ونفذت كلمته ، والقى بها عصا السفر، واستقر مستوطناً))[٥] .

---

(١) البنداري ، سنا البرق ، ص١٠٩ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص١٦٣ .
(٢) أحمد ، المدارس العصرونية ، ص٣٦ .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢، ص٥٠ .
(٤) البنداري ، سنا البرق ، ص١١٣ .
(٥) السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٤، ص٨٥ .

**٣- سفارته وحمله بشارة النصر إلى الخلافة العباسية في بغداد :**

قام الفقيه القاضي شرف الدين بن أبي عصرون بمهمة كبيرة هي حمل رسالة بشارة النصر إلى الخلافة العباسية في بغداد سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، تحمل في طياتها خبر قطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م) وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بالله ، وحمل معه نسخة لهذه البشارة كانت تقرأ في كل مدينة يصلها ، ولم يترك مدينة إلا دخلها بتلك البشارة الجليلة القدر ، وقرأ فيها هذا المنشور السار حتى وصل موكبه إلى العاصمة العباسية بغداد في يوم السبت١٢ المحرم من السنة ذاتها وتلقاه أهلها بالحفاوة والتكريم ، ونثرت عليه دنانير الأنعام وحبي بكل إحسان وإكرام ، وأرسلت التشريفات إلى السلطان نور الدين زنكي والناصر صلاح الدين الأيوبي(١) .

وقد استمر ابن أبي عصرون مشاركاً في الحياة السياسية بعلمه في القضاء والفقه وآرائه السديدة التي كان يقدمها للدولة الأيوبية ، واعتمده الناصر صلاح الدين سفيراً إلى الخلافة العباسية ببغداد حتى وقعت معركة حطين سنة٥٨٣هـ/١١٨٧م التي حقق فيها المسلمون بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبي النصر على الصليبيين وحرروا بيت المقدس من أيديهم (٢) وكان الفقيه القاضي ابن أبي عصرون من بين المشاركين مع الناصر صلاح الدين في هذه المعركة الحاسمة التي فتح الله بها معظم مدن الساحل السامي والقدس الشريف(٣) حتى أنه بعد انتهاء المعركة توجه ابن عصرون مع عدد من

---

(١) البنداري ، سنا البرق ، ص٦٠ ؛ المقريزي ، السلوك ،ج١، ص١٥٠ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن معركة حطين ونتائجها على الصراع الإسلامي ـ الصليبي . ينظر : العماد الاصفهاني ، الفتح القسي، ص١٧-٢٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٥-٧٩ ؛ ؛ سهيل زكار ، حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس (دمشق:١٩٨٤م) .

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٤٢ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠ ؛ البنداري ، سنا البرق، ص٢٩٦.

الأمراء المسلمين الذين احتاطوا على الأسرى الذين ارسلهم الناصر صلاح الدين إلى دمشق فدخلها حاملاً معه صليب الصلبوت[١] منكس بين يديه[٢] .

**٤- نتاجه العلمي والأدبي :**

يعد شرف الدين ابن أبي عصرون من الشخصيات المتميزة تمتعت بصفات فريدة فقد وصفه ابن تغري بردي بأنه كان (( إماماً فاضلاً مصنفاً))[٣] ووصفه السبكي أيضاً(( نزيل دمشق ، قاضي القضاة وعالمها ورئيسها ، وكان من أعيان الأمة وأعلامها عارفاً بالمذهب والأصول والخلاف ، مشاراً إليه في تحقيقات الفقه ، ديناً خيراً متواضعاً سعيد الطلعة ميمون النقيبة ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ))[٤] وقال عنه ابن الصلاح ((كان من أفقه أهل عصره ، وإليه المنتهى في الفتاوى والأحكام ))[٥] وأفاض العماد الأصفهاني في وصفه عندما قال عنه((حجة الإسلام مفتي العراق والشام شيخ العلم العلامة وبفتياه توطدت للشرع الدعامة وله في الفخار والفخامة ، وليس في عصرنا من أتقن مذهب الشافعي عنه مثله وقد أشرق في الآفاق فضله وصنف في المذاهب تصانيف مفيدة قواعدها في العلم مهيدة))[٦] .

(١) صليب الصلبوت : هو قطعة من الخشب يعتقد النصارى أن المسيح (عليه السلام) صلب عليها . ينظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٢، ص١٨٩ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ،ج٨، ص٢٨٣ .

(٣) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : جمال الدين الشيال (القاهرة : د.ت)،ج٦، ص١٠٩ .

(٤) طبقات الشافعية،ج٤، ص٨٤-٨٥ .

(٥) طبقات الفقهاء ،ج١، ص٥١٣ .

(٦) خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق :شكري فيصل(دمشق:١٩٥٩م) ج٢، ص٣٥١ . وبهذا الصدد قارن أيضاً مع ما قاله القاضي الفاضل في وصف شخصية القاضي شرف الدين بن أبي عصرون عبر عنها باسلوب أدبي في الرسالة التي بعثها الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى القاضي ابن أبي عصرون والتي يوضح فيها موقفه من أمراء دمشق عقب وفاة السلطان نور الدين زنكي مبيناً أسباب توجهه إلى بلاد الشام . ينظر : القاضي الفاضل ، رسائل القاضي الفاضل ، دراسة وتحقيق : علي نجم عيسى (الموصل :٢٠٠١م) ، ص٤٢-٤٥ .

أما أهم الكتب التي صنفها فهي "صفوة المذهب من نهاية المطلب"[١] في سبع مجلدات وكتاب " الانتصار " في أربع مجلدات وكتاب " المرشد " في مجلدين وكتاب " الذريعة في معرفة الشريعة " في مجلد وكتاب " التيسير " في أربع مجلدات وكتاب " ما أخذ النظر " وكتاب " مختصر الفرائض " وكتاب " الإرشاد المغرب في نصرة المذهب " ولم يكمله وذهب فيما نهب له بحلب وله مؤلفات أخرى منها " التنبيه في معرفة الأحكام " و" فوائد المهذب " في مجلدين و" الموافق والمخالف " و"فوائد المنذري " في مجلدين وجمع جزءً في جواز قضاء الأعمى[٢] وفضلاً عن الكتب كان لابن أبي عصرون فتاوى ومحاضرات في علم الحديث[٣] .

أما ما يتعلق بنتاجه الأدبي ففضلاً عن براعته في علوم الفقه والأصول والفتاوى والقضاء فقد اشتهر بالأدب فكان شاعراً أديباً له مقطوعات شعرية كثيرة تنم عن إحساس متدفق وخيال خصب واسع ونفس مجربة عكرتها الحياة ومن أشعاره :

أؤمل أن أحيا وفى كل ساعة ... تمر بى الموتى تهز نعوشها
وما أنا إلا منهم غير أن لي ... بقايا ليال في الزمان أعيشها

ومن شعره أيضاً :

كل ما جمع إلى الشتات يصير ... أي صفو ما شانه تكدير
أنت في اللهو والأماني مقيم ... والمنايا في كل وقت تسير
والذي غره بلوغ الأماني ... بسراب وخلب معرور
ويك يا نفسي أخلصي إن ربي ... بالذي أخفت الصدور يصير[٤]

ومن شعره أيضاً :

أمستخبري عن حنيني إليه ... وعن زفراتي وفرط اشتياقي

---

(١) ورد ذكر الكتاب أعلاه بعنوان آخر هو صفوة المذهب في تهذيب نهاية المطلب فضلاً وقوعه في ثماني مجلدات . ينظر: ابن الصلاح ، طبقات الفقهاء ،ج١، ص٥١٣ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص٤٢ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٤، ص٨٥ .

(٣) اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين(بيروت:٢٠٠٨م)،ج٦،ص٤١٥ .

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٤، ص٨٦–٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ،ج٦، ص١١٠ .

لك الخيــر إن بقلبــي إليـــك ظمـأً لا يــرويـه إلا التـــلاقـــي
يا سائلي كيف حالي بعد فرقته وحاشاك مما بقلبـي من تنائيكـا
قد أقسم الدمع لا يجفو الجفون أسى والنوم لا زارها حتى ألا قيكا[١] .

**٥- إصابته بالعمى ووفاته :**

ظل الفقيه شرف الدين ابن أبي عصرون قاضياً لدمشق يحكم بالشرع الإسلامي حتى أصيب بالعمى في سنة٥٧٧هـ/١١٨١م أي بعد مرور أربع سنوات على توليه القضاء وفقد بصره في آخر عمره قبل موته بثمان سنوات ، فتكلم الناس في عدم أهليته للقضاء وطعنوا بها[٢] مما كان له وقع في نفس صلاح الدين وأدى إلى حرج موقفه فهو لا يريد أن يمس مشاعر صاحبه الذي فقد بصره ويعزله عن منصب القضاء والوقت نفسه يتعرض لأقوال الفقهاء التي تطعن في بقاء ابن أبي عصرون في منصبه لعدم أهليته ، وقد تصدى شرف الدين ابن أبي عصرون لهذه المشكلة بنفسه وأصدر كتاباً في جواز قضاء الأعمى مخالفاً مجموع الفقهاء ، وكان سنده فيما ذهب إليه من جواز قضاء الأعمى رأي ورد في كتاب جمع الجوامع للروياني اختاره شرف الدين ابن أبي عصرون ووضع فيه جزءً في جواز قضاء الأعمى ، وظل هو قاضياً مستمراً في عمله لما أصيب بالعمى ، وكانت حجة الجمهور أن الأعمى لا يعرف الخصوم ولا الشهود فكيف يحسن قضاؤه فيما يعرض عليه[٣] وإزاء تلك المشكلة التي وقف فيها شرف الدين ابن أبي عصرون لوحده في جانب وجميع الفقهاء في الجانب الآخر في بلاد الشام انتابت صلاح الدين الحيرة وأرسل إلى القاضي الفاضل في مصر يستعين به على حل هذه المشكلة بأنه يتوجب عليه أن يتصل بالشيخ أبي طاهر ابن عوف الإسكندري ويسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى لحسم القضية[٤] .

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج٢١، ص١٢٨-١٢٩.
(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص٤٢ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص١١٣ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية، ج٤، ص٨٦ .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٢، ص٥١ ؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، نكت الهميان في نكت العميان(القاهرة :١٩١١م)،ص١٨٥،٦٠ .
(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص٤٢-٤٣ .

ولم يلبث القاضي الفاضل حتى بعث بالإجابة في رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي أوردها مؤرخا الدولة الأيوبية ابن واصل وأبو شامة وكان مضمونها:((لن يخلو الأمر عن قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام ولا ينسى له هذا التخريج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام: إما إبقاء باسم الوالد بحيث ويبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة ويشترط عليه المجازاة لأول زلة وترك الإقالة لأقل عشرة ، فطالما بعث حب المناقشة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصالحة ، وإما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب ولا يجوز أن يتقدم عليه في البلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه))[١] وبذلك وجد صلاح الدين في هذا الجواب الحل لمشكلة قضاء الأعمى من دون الوقوع في الحرج فأبقى شرف الدين ابن أبي عصرون على رأس القضاء وفوض الأمر إلى ولده محيي الدين أبي حامد محمد بن شرف الدين على أن يكون والده هو الحاكم الحقيقي، ويظهر للناس على أنه نائب عن أبيه بحيث لا يظهر للناس عزله عن القضاء ، وهكذا بقي شرف الدين ابن أبي عصرون يمارس قضاء القضاة في بلاد الشام وولده نائب عنه بفضل دفاعه عن نفسه والغوص في أعماق الفقه الإسلامي واستخلاص ما يجيز قضاء الأعمى فضلاً عن تضامن صلاح الدين معه ومساندة صاحبه القاضي الفاضل له بالحق[٢] .

وكانت وفاة الفقيه القاضي شرف الدين بن أبي عصرون في دمشق ودفن فيها في المدرسة العصرونية التي سميت باسمه يوم الثلاثاء١١رمضان سنة٥٨٥هـ/١١٨٩م ، وعدت وفاته خسارة كبيرة للمذهب الشافعي إذ لم يخلفه مثله بعد وفاته[٣] عن عمر دام ثلاث وتسعون عاماً[٤] وعندما وصل الخبر إلى مصر كتب القاضي الفاضل رسالة رثاء يعزي فيها شرف الدين ابن أبي عصرون ويرد على الرسالة التي وردته بالخبر من بلاد

---

(١) مفرج الكروب ،ج٢، ص٦٧–٦٨ ؛ الروضتين ،ج٢، ص٢٦ .

(٢) أحمد ، المدارس العصرونية ، ص٤١ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٩١ ؛ ابن الصلاح ، طبقات الفقهاء ،ج١، ص٥١٣ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج٢١، ص١٢٩ .

(٤) عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا(بيروت:١٩٩٨)،ج٤، ص٢٨٤ .

الشام : (( وصل كتاب الذات الكريمة جمع الله شملها وسرد بها أهلها ويسر إلى الخيرات سبلها وجعل في ابتغاء رضوانه قولها وفعلها ، وفيه زيادة هي نقص الإسلام وثلم في البرية يتجاوز رتبة الإنثلام إلى الانهدام وذلك ما قضاه الله تعالى وقدره من وفاه الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون رحمه الله تعالى ، وما حصل بموته من نقص أطرافها ومن مساءة أهل الملة ومسرة أهل خلافها ، فلقد كان علماً للعلم منصوباً وبقية من بقايا السلف الصالح محسوباً ، وما مات من أبقى تلك التصانيف التي هي المعنى المغني بل ما مات ولده المحيي ، فإنه والله لآثاره ولعلمه والحضرة تنوب عني في تعزيته والقيام بحق تسليته وقد ساءتني الغيبة عن مشهده ولقد علم الله اغتمامي لفقد حضرته واستيحاشي لخلو الدنيا من بركته ... وما مات بحمد الله حتى أحرز غيبته بأولاد بررة وأنشأ طلبة للعلم نقلة وللمدارس عمرة وحتى بنى لله المدارس والمساجد وأحيا نهاره وليله بين راكع وساجد فهو حي لمجده وإنما نحن الموتى بفقده))[١] وعلى الرغم من وفاة شرف الدين ابن أبي عصرون إلا أن ابنه محيي الدين ابن أبي عصرون ظل قاضياً لدمشق حتى عزل عن منصبه سنة٥٨٧هـ/١١٩١م وحل بدلاً عنه القاضي محيي الدين بن الزكي[٢] .

**ثانياً : الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري**

هو ضياء الدين أبي محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري ، درس الفقه على الإمام أبي القاسم البزي في بلاد الجزيرة ثم انتقل إلى حلب وسمع من الحافظين أبي طاهر السلفي وأبي القاسم ابن عساكر، ثم أصبح فقيهاً وتولى تدريس الفقه في المدرسة الزجاجية بحلب ، وكان في بداية أمره قد اتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي وتوجه معه إلى الديار المصرية وأصبح أحد مساعديه وإمام الصلاة في الجيش يصلي به الفرائض الخمس، وأسهم في معه في اسقاط الخلافة الفاطمية وإسناد السلطة إلى صلاح الدين بعد عمه أسد الدين وكان يتمتع بشجاعة فائقة وحنكة سياسية وخبرة عسكرية ولذلك أصبح أحد كبار أمراء الدولة الصلاحية وقادة الجيش في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي فضلاً عن كونه أحد أبرز الفقهاء خلال تلك الحقبة ، ثم

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان،ج٣، ص٤٤ ؛ الصفدي ، نكت الهميان ، ص١٨٦ .

(٢) ابن الأثير، الكامل ،ج٩، ص٤٣٧ ؛ أحمد بن ابراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد (بغداد: ١٩٧٨م)، ص١٧٤.

تولى الوزارة في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي كان يستشيره ويتبع نصائحه كونه فقيهاً معولاً عليه في الآراء والمشورات يعتمد عليه ولم يكن يخرج عن رأيه وكان كثير الادلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام ، كما كان الفقيه عيسى الهكاري واسطة بين الناصر صلاح الدين والناس بما ينفعهم ويحقق المصلحة العامة [١] .

ويعد الفقيه الهكاري من كبار مستشاري دولة الناصر صلاح الدين وكانت يستمع لنصائحه ويعامل سيده بكل تواضع ، كما أنه كان يحضر مجالس صلاح الدين وشارك معه في حروبه ضد المحتلين الصليبيين[٢] وهذا يعني أن الفقيه عيسى الهكاري كان فقيهاً وجندياً في وقت واحد[٣] ويروى أنه كان (( من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الأسدية ، ذا عصبية ومروءة جمع العلم والدين والشجاعة ))[٤] كما (( كان من مقربي السلطان ومن أهل الجد في نصرة الإيمان)) [٥] فضلاً عن أنه (( كان مع السلطان ومن أعين عسكره وكان جندياً فقيهاً شجاعاً ، كريماً حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين))[٦]

**١. دوره في دعم صلاح الدين لمنصب الوزارة**

ما أن تولى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله حتى اعترض بعض الأمراء النورية الذين طمعوا في الوزارة لأنفسهم على هذا الوضع ورفضوا طاعة صلاح الدين وخدمته[٧] وكادت تحدث فتنة بين قوات السلطان نور الدين زنكي في مصر لولا الدور الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري وتدخله لإنقاذ الموقف فقد سعى جاهداً بين هؤلاء الأمراء حتى تمكن من جمعهم حوله بأنواع من الترغيب والترهيب

(١) ابن الأثير، الكامل ،ج٩، ص٤٣٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص٤٣٦ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٤، ص١٦٤ .

(٢) ستانلي لين بوول ، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس ، ترجمة : سعد أبو جابر (القاهرة:١٩٩٥م)، ص١٦٤-١٦٥ .

(٣) زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي (بيروت:١٩٩٦م)،ج٢، ص٩٩ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٤٣٧ ؛ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق : مهدي النجم (بيروت : ٢٠١٠م)،ج٢٧، ص٦٣ .

(٥) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٩١ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢، ص١٥٠ .

(٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨١ ،٢٣٩ .

(٧) آسيا سليمان نقلي ، دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية (عمان:٢٠٠٢م)، ص١٢٣ .

، غير أن عين الدولة الياروقي فضل العودة إلى بلاد الشام لخدمة السلطان نور الدين زنكي على أن يبقى تابعاً لصلاح الدين الأيوبي(١) وهكذا يتضح الدور الكبير الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري في دعم صلاح الدين في وزارته ، فقد استطاع بقوة شخصيته وذكائه أن يوطد الأمور لصلاح الدين في بداية توليه حتى يتيح له الفرصة للتفرغ لحشد الأمة وتوحيد جهودها للجهاد ضد الغزاة الصليبيين(٢) .

**٢. إصلاح الموقف السياسي بين صلاح الدين الأيوبي والسلطان نور الدين زنكي**

يرجع الفضل للفقيه عيسى الهكاري في إصلاح الموقف السياسي وردم الفجوة بين صلاح الدين وسيده السلطان نور الدين زنكي عندما اعتذر صلاح الدين عن التوجه من مصر إلى بلاد الشام سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ، لمحاربة الصليبيين في حصن الكرك (٣) كما أن السلطان نور الدين قبل وساطة الفقيه عيسى الهكاري الذي اعتذر نيابة عن صلاح الدين عن الرحيل إلى الشام وبين له سبب ذلك التلكؤ أن صلاح الدين كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وأنه تعرض لمرض شديد ويخشى موته فتخرج البلاد عن أيديهم فعظم ذلك على السلطان نور الدين وحمل الفقيه عيسى الهكاري رسالة إلى صلاح الدين مفادها : حفظ مصر أهم عندنا من غيرها(٤) وكان صلاح الدين يعتمد عليه في كثير من الأمور حتى أصبح الفقيه عيسى الهكاري واحداً من كبار الأمراء في دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي ، إذ كان صلاح الدين يحترم علمه ورجاحة عقله وآراءه السديدة ويستشيره كثيراً في أمور الحكم والسياسة والحرب ولم يكن يخرج عن رأيه(٥) .

---

(١) ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق : عبد القادر طليمات (القاهرة :١٩٦٣م)، ص١٤٢.

(٢) نقلي ، دور الفقهاء والعلماء ، ص١٢٤ .

(٣) حصن الكرك : معقل حصين يقع في أطراف بلاد الشام بين مدينة أيلة والبحر الأحمر ، شيده الصليبيون في سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م ، فوق قمة جبل شاهق تحيط به الأودية من ثلاث جهات . ينظر: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ط٢(بيروت:١٩٩٥م)،ج٤، ص٤٥٣ ؛ وللاستزادة هناك دراسة مفصلة عن هذا الحصن . ينظر: مصعب حمادي الزيدي ، " حصن الكرك في عهد الاحتلال الصليبي دراسة سياسية عسكرية " بحث منشور في (مجلة كلية العلوم الإسلامية، الموصل: ٢٠١٠)، م٤،ع٧،ص٤٣-٧٠.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٢٦٣-٢٦٤ .

(٥) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٣٠١ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية،ج٤، ص١٦٤ .

**٣. دوره في الصلح مع أهالي مدينة الموصل**

يظهر دور الفقيه عيسى الهكاري بشكل جلي في أحداث صلح صلاح الدين مع أهالي مدينة الموصل ، فعندما حاصر صلاح الدين الموصل في رجب سنة٥٧٨هـ/١١٨٢م ، لكي يستعيدها من حاكمها الأتابك عز الدين مسعود الأول (٥٧٦-٥٩٠هـ/١١٨٠-١١٩٣م) ويضمها إلى الجبهة الإسلامية ويضمن وقوف أهلها معه في الجهاد ضد الغزاة الصليبيين ، ولكن بعد مناوشات جرت بين الجانبين تدخل الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٦-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) لفض النزاع وحسم الأمر وأرسل صدر الدين شيخ الشيوخ مندوباً عنه للتوسط في الصلح بين الجانبين[١] كما أرسل صدر الدين إلى صلاح الدين يطلب منه إرسال بعض ثقاته لحضور مباحثات الصلح بين الجانبين ، وبدوره انتدب الناصر صلاح الدين كلاً من القاضي الفاضل والفقيه عيسى الهكاري اللذان حضرا ذلك الاجتماع عند صدر الدين ، وقام كلاهما بإجراء مباحثات وتقريب وجهات النظر حتى نجحا في تحقيق الهدف المنشود وهو عقد الصلح بين الجانبين ، وبعد أن استقرت الأمور بينهما رحل صلاح الدين عن الموصل وحقنت بذلك دماء المسلمين[٢] .

**٤. دوره الدبلوماسي في التفاوض مع وزير خلاط :**

قام الفقيه عيسى الهكاري بمهمة دبلوماسية أخرى وذلك عندما أوفده الناصر صلاح الدين كنائب له على رأس وفد في سنة٥٨١هـ/١١٨٥م ، للتفاوض مع وزير خلاط[٣] لأنه بعد وفاة شاه أرمن سكمان حاكم خلاط تولى مملوكه سيف الدين بكتمر حكم البلاد فتوجه نحوه البهلوان أتابك شمس الدين محمد بن إيلدكز صاحب العجم لانتزاع خلاط منه وطمع وزير خلاط أيضاً في الاستيلاء عليها وهو مجد الدين بن الموفق بن رشيق الذي أرسل إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي طالباً منه التدخل الشخصي لحسم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٣٤٣-٣٤٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج٢، ص٢٩ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٣٧ ؛ نقلي ، دور الفقهاء والعلماء ، ص١٢٧؛ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٢٧ .

(٣) خلاط : بلدة مشهورة تشكل قصبة أرمينيا الكبرى وبلادها ، اشتهرت بكثرة انتاجها للفواكه وغزارة مياهها . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج٢، ص٣٨٠-٣٨١ .

الخلاف ووضع حد تلك الأطماع ، فاختار الناصر صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري وأرسله لتنفيذ تلك المهمة الدبلوماسية فتمكن من تمهيد الطريق لإجراء الحوار ومناقشة الأطراف المتخاصمة فتحدث وزير خلاط مع الفقيه عيسى طالباً استعجال الناصر صلاح الدين في الوصول قبل وصول البهلوان ، وكان صلاح الدين قد غادر الموصل في طريقه إلى خلاط ، أما البهلوان فعندما علم بتلك التطورات وذلك الموقف الحاسم الذي وقفه الفقيه عيسى الهكاري في دعم ومساندة وزير خلاط وإرساله رسالة عاجلة إلى صلاح الدين ، دخل في قلبه الخوف وخشي عاقبة الأمور فأضطر على أثرها إلى طلب الصلح مع وزير خلاط والعودة إلى بلاده فتم الصلح وحسم الأمر بين الجانبين(١) وكان ذلك بفضل حكمة ودهاء الفقيه عيسى الهكاري ورجاحة آراؤه السديدة والتي مكنته من تنفيذ مهمته السياسية بنجاح .

**٥. رجل المهمات الخاصة :**

قام الناصر صلاح الدين الأيوبي بعدة تعديلات في بلاد مصر والشام سنة٥٨٢هـ/١١٨٦م خاصة بنوابه في الدولة الأيوبية وذلك لأسباب عدة أولها : رغبته في الاطمئنان على مستقبل البلاد بعد وفاته ، وثانيها: عدم حدوث خلاف بين أبنائه ، وثالثها: تدريبهم على سياسة الملك في حياته وصيانة البلاد من الانشقاق لا سيما وأنه كان يعد نفسه للدخول في معركة حاسمة من معارك جهاده ضد الغزاة الصليبيين ، فعندما وصلت الأخبار إلى مسامع الناصر صلاح الدين مفادها أن ابن أخيه تقي الدين عمر ـ نائبه في مصر مع ولده الملك الأفضل ـ قد صدرت عنه تصرفات أثناء مرض الناصر صلاح الدين بحران تدل على رغبته في الاستبداد بالحكم في مصر ، أرسل الفقيه عيسى الهكاري الذي كان كبير القدر عنده مطاعاً في الجند إلى مصر وأمره بإخراج تقي الدين منها والإقامة فيها . وبناءً على ذلك أسرع الفقيه الهكاري بتلبية الأمر وتنفيذ المهمة الخاصة فتوجه إلى مصر ونفذ ما أمر به وظل مقيماً بها حتى وصل الملك العادل الأيوبي أخو صلاح الدين وبصحبته العزيز عثمان بن صلاح الدين ، مما يدل ذلك على

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٤-٤٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٢، ص١٦٨-١٦٩ .

الثقة الكبيرة التي أولاها صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري واطمئنانه إليه خاصة وأنه يعلم مدى تأثير الهكاري في جند مصر[١] .

**٦. دوره الجهادي في الحروب ضد المحتلين الصليبيين :**

بعد أن استقرت الأمور السياسية لصلاح الدين وبدأ مرحلة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في بلاد الشام يشاركه الكثير من المتطوعين من الفقهاء والعلماء وكان في مقدمتهم الفقيه عيسى الهكاري الذي شاركه في الجهاد ضد الصليبيين مشاركة فعلية وحمل السلاح وقاتل في المعارك مجاهداً في سبيل الله وكان يلبس زي الأجناد بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين المدني والعسكري[٢] وقد أثبتت المصادر الإسلامية هذه المشاركة فعندما خرج مع صلاح الدين في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م لحرب الصليبيين في مدينة عسقلان قام بشن هجوم عليها فقتل الكثير من الصليبيين وأسر عدد كبير منهم وأحرق ما حولها ، ثم واصل صلاح الدين سيره بمن معه من جيش إلى الرملة فسبى وغنم ولكن لما تشاغل الجيش بالغنائم وتفرقوا في القرى والمناطق التي حولها وبقي صلاح الدين في فئة قليلة من جنده ، قام الصليبيون فجأة بالهجوم عليهم فأرتبك المسلمون وأخذوا يقاتلون الصليبيين لكن حلت بهم الهزيمة وقتل منهم أعداداً كبيرة وأسر الكثير منهم[٣] وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وأخيه ظهير الدين ممن وقعوا في الأسر، بعد أن أضاعوا الطريق وأصبحوا بقرب العدو الصليبي فكمنوا في مغارة وبقوا فيها حتى استدل عليهم الصليبيين ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفقيه عيسى الهكاري أظهر شجاعة فائقة في قتال العدو الصليبي في معركة الرملة قبل وقوعه في الأسر بدليل ما ذكره المؤرخ ابن الأثير بأنه(( كان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم))[٤] ومما يدل على المكانة الكبيرة التي كان يحضى بها الفقيه الهكاري عند صلاح الدين الأيوبي هو ما رواه المؤرخون المسلمون من أن صلاح الدين افتداه بعد مرور سنتين من الأسر بمبلغ قدره

---

(١) نقلي ، دور الفقهاء والعلماء ، ص١٢٨-١٢٩ ؛ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٣٣٥ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص٤٣٦ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٣٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج١، ص٢٧٤ .

(٤) الكامل ،ج٩، ص٣٠٨-٣٠٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٢، ص٥٩-٦٠ .

ستين ألف دينار[(١)] وقيل في رواية أخرى افتداه بسبعين ألف دينار[(٢)] وليس ذلك فحسب بل أن صلاح الدين لم يكتف بفك أسر الفقيه الهكاري وافتدائه بالأموال وإنما أطلق كثيراً من عناصر تنظيم الفرسان الداوية[(٣)] ممن كانوا عنده في الأسر ، وهذا يدل على عظم وقدر منزلة الفقيه عيسى الهكاري لدى صلاح الدين الأيوبي[(٤)].

وبقي الفقيه عيسى الهكاري ملازماً لصلاح الدين في غزواته وفتوحاته الجهادية ضد المحتل الصليبي ، وأهمها كانت مشاركته في تحرير القدس ٢٧رجب سنة٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وليس ذلك فحسب بل فوض إليه صلاح الدين ولايتها منذ يوم تحريرها حتى سنة٥٨٥هـ/١١٨٩م[(٥)] وأخر مشاركاته كانت معركة تحرير عكا سنة٥٨٤هـ/١١٨٨م التي تولى فيها قيادة مركز القلب في جيش الناصر صلاح الدين الأيوبي وأبلى بلاءً حسناً ولذلك فقد خصص له بعد انتهاء المعركة وتحريرها من الصليبيين في يوم الجمعة ٢جمادي الأولى من السنة ذاتها ، كل ما يتعلق بأملاك تنظيم الداوية فيها من منازل وضياع ومواضع ورباع ، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع تكريماً له واعترافاً بمكانته ومشاركته في الجهاد ضد الصليبيين، وتشجيعاً لاستمراره في البذل والعطاء لهذه الفريضة[(٦)] وكان أخوه الفقيه ظهير الدين الهكاري حاكم القدس قد استشهد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٣٠٩ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص١٣١ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ،ج٢٧، ص٦٣ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٤، ص١٦٤ .

(٢) البنداري ، سنا البرق ، ص١٣١ .

(٣) الداوية : تنظيم تأسس في عهد الملك الصليبي بلدوين الثاني في مدينة القدس بعد استقرار الصليبيين في بلاد الشام وظهور مشكلة الطرق غير الأمنة لحجاجهم ورعاياهم القادمين إلى القدس نتيجة هجمات المسلمين عليها وسطو قطاع الطرق عليهم بغرض السلب والنهب ، ثم أصبح التنظيم فيما بعد يشكل أكبر تنظيم عسكري صليبي في بلاد الشام ، عرف باسم تنظيم فرسان المعبد أو فرسان الداوية . ينظر: نبيلة إبراهيم مقامي ، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (القاهرة : ١٩٩٤م)، ص١٦-١٧ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٣٠٩ .

(٥) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٣٠٣ .

(٦) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٥٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٤٣٧،٤٣٣ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص٣٠٠ .

في معركة تحرير عكا، وعندما علم الفقيه عيسى بنبإ استشهاده أنكر عزاء الناس له قائلاً : هذا يوم الهناء لا يوم العزاء[١] .

وقد توفي الفقيه عيسى الهكاري في منزله بالخروبة[٢] فجر يوم الثلاثاء ٩ ذي القعدة سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م ثم حمل نعشه من عكا إلى القدس ليدفن فيها ، وكانت وفاته أثر مرض عضال لازمه مدة أضعف قواه[٣] تلك هي شخصية العالم الفقيه عيسى الهكاري الذي كان له دور بارز في التأثير الايجابي في صفوف الشعب والدولة الأيوبية التي أوكلت له مسؤولية الدفاع والحرب فأجاد وبرع في المجالات الدينية والسياسية والعسكرية في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي .

**ثالثاً : الفقيه زين الدين علي بن نجا**

هو أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الدمشقي الفقيه الحنبلي الواعظ المفسر الملقب زين الدين والمعروف بابن نجية ولد بدمشق في سنة٥٠٨هـ/١١١٤م ، ونشأ وترعرع فيها [٤] وقيل في رواية أخرى أنه ولد في سنة٥١٠هـ/١١١٦م[٥] ثم رحل في شبابه من دمشق إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية وسمع الحديث بها من المحدث سعد الخير بن محمد الأندلسي وصاهره على ابنته فاطمة ونقلها معه إلى مصر وسمع أيضاً من المحدث عبد الصبور بن عبد السلام الهروي ومن أبي الفرج عبد الخالق اليوسفي في سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م[٦] وقد التقى خلال زيارته إلى

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان،ج٢، ص٤٣٥ .

(٢) الخروبة : بلدة تقع على بعد (١٦ كم) إلى الجنوب الشرقي من مدينة عكا . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان،ج٢، ص٣٦٢ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٩١ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨١ ،٢٣٩ ؛ ابن الأثير، الكامل ،ج٩، ص٤٣٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٣، ص٤٣٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٢، ص٦٠ .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ،ج٨، ص٥١٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج٢، ص٥٣٠ ؛ الذهبي ، تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا (بيروت :٢٠٠٥م)،ج١٢، ص٥١٥ .

(٥) زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ، طبقات الحنابلة ، تحقيق : محمد حامد الفقي (القاهرة:١٩٥٢م)،ج١، ص٣٠٨ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،ج٤، ص٣٤٠ .

(٦) زكي الدين عبدالله المنذري ، التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق وتعليق : بشار عواد معروف (النجف: ١٩٦٨م)،ج١، ص٤٦٣ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج٢١، ص٣٩٣ .

بغداد بالشيخ عبد القادر الكيلاني (ت:٥٦١هـ/١١٦٥م) فقال: ((فاشتغلت عليه بالعلم ففتح الله عز وجل علي في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد))(١) ثم غادرها عائداً إلى وطنه دمشق في سنة٥٦٣هـ/١١٦٧م غير أنه لم يلبث أن عاد إليها مرة أخرى بعد أن اعتمده السلطان نور الدين زنكي ليكون رسولاً إلى الخلافة العباسية في سنة٥٦٤هـ/١١٦٨م وخلع عليه خلعة سوداء فكان يلبسها في الأعياد على أنه بقي فيها مدة ثلاث سنوات(٢).

وبعد عودته إلى مصر سنة٥٦٧هـ/١١٧١م أقام بها واتصل بالخلافة الفاطمية ونال الحظوة عند الخليفة العاضد لدين الله(٣) ويذكر ابن رجب الحنبلي أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس للشيخ عبد القادر الكيلاني وسأله عن أمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لا بد وأن تفشل فجرى الأمر كما أراد(٤) ولعل الشيخ عثمان رأى أن يسبق دخول شيركوه لمصر من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله بما يشيعه الصوفيون والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه ، أما عن حظوة ابن نجا في بلاط الفاطميين فلعلها كانت خطة تستهدف الاطلاع على مواطن الضعف والقوة عندهم والتأثير في عملية التعبئة الإعلامية التي كان يقودها أمثال الشيخ عثمان بن مرزوق(٥) .

على أن الفقيه ابن نجا أصبحت له مكانة علمية واجتماعية مرموقة في مصر فقال عنه البنداري كان ((من أهل دمشق ومن ساكني مصر ذو لهجة في الوعظ صحيحة وبهجة في الفضل صبيحة وقبول من القلوب وفصول في الخطاب الخطوب))(٦) على أنه كان قد سطع نجمه بعد أن قام بتدريس العلوم الدينية التفسير والحديث والفقه في مدن

(١) محمد بن يحيى التادفي ، قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر (القاهرة:١٩٥٦م)،ص٣٣ .

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ،ج١٢، ص٥١٦ ؛ عماد الدين إسماعيل بن كثير ، البداية والنهاية ،خرج أحاديثه: أحمد شعبان أحمد وآخر(القاهرة:٢٠٠٢م)،ج١٣، ص٣١ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،ج٤، ص٣٤٠

(٣) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٢٦٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٣، ص٣١ .

(٤) طبقات الحنابلة ،ج١، ص٣٠٨ .

(٥) ماجد عرسان الكيلاني ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط٢(دبي:٢٠٠٩م)، ص٣١٧-٣١٨ .

(٦) سنا البرق ، ص٢٤٦ .

بغداد ودمشق والقاهرة والاسكندرية كما أحب الوعظ فغلب عليه واشتغل به وبرع فيه ، فيروى ابن نجا أن خاله شرف الإسلام عبد الوهاب كان قد حفظه مجلس وعظ وعمره وقتذاك عشر سنوات ثم نصب له كرسياً في داره وأضر له جماعة من الناس وقال له تكلم ، فتكلم فبكى وكان ذلك المجلس يذكره خاله وهو ابن تسعين سنة(١) هذا فضلاً عن عقده حلقات العلم التي كان يحضرها طلبه العلوم الشرعية فتخرج على يده الكثير منهم أمثال ابن الحافظ عبد الغني وابن خليل ومحمد بن البهاء والحافظ ضياء المقدسي والزكي عبد العظيم كما حصل بعضهم منه على الاجازة العلمية أمثال المنذري وأحمد بن أبي الخير(٢) .

ولقد قدر لابن نجا أن يكون من رجال الناصر صلاح الدين الأيوبي وكبار مستشاريه إذ ذكر التادفي أن ((ابن نجا استأذن عبد القادر بعد أن أنهى دراسته بالسفر إلى مصر ، فأذن له الشيخ وقال له : إنك تصل إلى دمشق تجد بها الغز(القيادة النورية) متأهبين للدخول إلى مصر ليملكوها ، فقال لهم : إنكم لن تنالوا ما تريدون من مصر هذه المرة : ألا ترجعون وتعودون مرة أخرى فتملكونها ؟ قال : فلما قدمت دمشق وجدت الأمر كما قال لي ، وقلت لهم ما قال لي فلم يقبلوا مني ودخلت مصر فوجدت الخليفة ـ أي الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ـ بها متأهباً للقائهم فقلت له : لا بأس عليك إنهم سينقلبون خائبين وترجعون ظاهرين فلما وصل الغز إلى مصر كسروا واتخذني الخليفة جليساً وأطلعني على أسراره ، ثم جاء الغز في الثاني وملكوا مصر وأكرموني إكراماً عظيماً بالكلام الذي قلته))(٣) وهذا يعني أن الفقيه ابن نجا كان له دور كبير في الحفاظ على آمن وسلامة الدولة الأيوبية إبان قيامها وحرصه الشديد على عدم تفككها حتى لا يطمع فيها أعداء الإسلام والمسلمين ، ويظهر هذا الدور عندما اتفقت العناصر الموالية للفاطميين مع أملريك الاول **Amalyric I** ملك مملكة بيت المقدس الصليبية(٥٥٩–٥٦٩هـ/١١٦٣–١١٧٣م) وملك صقلية النورماندي وليم الثاني **William II** (٥٦٢–

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام،ج١٢، ص٥١٥–٥١٦ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،ج٤، ص٣٤١ .
(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ،ج١٢، ص٥١٦ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،ج٤، ص٣٤٠–٣٤١ .
(٣) قلائد الجواهر، ص٣٣ .

٥٨٠هـ /١١٦٦– ١١٨٩م) على تنفيذ مخطط واسع النطاق يهدف إلى إحياء الخلافة الفاطمية في مصر التي أسقطها الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة٥٦٧هـ/١١٧١م(١) .

وكانت خطتهم تقوم على استقدام الحشود العسكرية الصليبية من صقلية وبلاد الشام إلى مصر لمساعدتهم مقابل إغرائهم بالأموال ومنحهم شيئاً من البلاد ، وفي الوقت الذي تصل فيه القوات الصليبية ويخرج صلاح الدين الأيوبي بجيشه لمواجهتهم يقوم المتآمرون بإشعال نيران الثورة في مصر فيقع صلاح الدين بين نارين : نار الثورة في الداخل ونار الخطر الصليبي في الخارج ، مما يؤدي ذلك إلى تشتيت جيشه ويساهم في هزيمته أمام الصليبيين من جهة وسيطرة المتآمرين على مقاليد والسلطة والحكم من جهة أخرى(٢)غير أن خيوط هذه المؤامرة انكشفت سنة٥٦٩هـ/١١٧٤م على يد الفقيه زين الدين علي نجا وذكر ابن الأثير تفاصيل ذلك بقوله: ((وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ المعروف بابن نجية ، ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والدعي والقاضي ، فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الأمر، فأمر بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه ، وتعريفه ما يتجدد من أولاً بأول ، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه))(٣) .

وبذلك استطاع صلاح الدين الوقوف على تفاصيل المؤامرة ، وفي تلك الأثناء وصل رسول الملك الصليبي أملريك الأول يحمل هدية ورسالة في الظاهر أنها لصلاح الدين وفي الباطن أنها إلى أولئك المتآمرين على صلاح الدين ، وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم ، فأتى الخبر إلى صلاح الدين بقرب وصول الصليبيين، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته(٤) وعندئذ تأكد لصلاح الدين من حقيقة الأخبار التي وصلته من الفقيه ابن نجا وتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة ، فأمر بالقبض على المتآمرين وقضى عليهم وسكنت

(١) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٢٦٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١، ص٢٤٣ – ٢٤٦
(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان،ج٣، ص٤٣١ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٢٦٩ ؛ ابو شامة ، الروضتين ،ج١، ص٢٢٠ .
(٤) ابن الأثير ، الكامل ،ج٩، ص٢٦٩–٢٧٠ .

الفتنـة ، فـي الوقـت الـذي وصـل جـيش الصـليبيين إلـى الإسـكندرية وجـد أن المـؤامرة قـد انكشفت وأن الاستعدادات قد اتخذت لمواجهتهم وجرت بينهم وبين حامية الإسكندرية حرب انتهت بهزيمة الصليبيين(١) .

ثـم قـرب الناصـر صـلاح الـدين إليـه الفقيـه ابـن نجـا وأحسـن إليـه بالأعطيـات والإقطاعات ، وأجمل وأعطاه وأجزل وأتم لـه مراده وأكمل ، وكـان الناصـر صـلاح الدين يكاتبه ويحضر مجلسه ويستشيره ويروقه تدبيره ويتيمن بندبـه ويمده بميراتـه ويوده بمكرماتـه ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته(٢) ولأنه ((كان كبير القدر معظماً عند صلاح الدين وهو الذي نم على الفقيه عمارة اليماني وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة فشنقهم صلاح الدين)) (٣) وليس ذلك فحسب بل أن صلاح الدين كان يسمي الفقيه ابن نجا عمرو بن العاص ويعمل برأيه لسداد رأيه وسعة حيلته وأن كثيراً من أرباب الدولة الأيوبية في مصر كانوا لا يخرجون عما يراه لهم الفقيه ابن نجا منذ عهد صلاح الدين حتى أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح فيما بعد حاكماً لمصر (٥٩٠-٥٩٥هـ/١١٩٣-١١٩٨م)التقى به ذات مرة وقال له : إذا رأيت مصلحة في شيء فأكتب إلي بها ، فأنا ما أعمل إلا برأيك(٤) وتشير المصادر أن ابن نجا كان قد ضاق ذرعاً من ديناً كان عليه ولم يكن يمتلك المال الكافي لسداده وعندما وصل الخبر إلى الملك العزيز بن صلاح الدين بذلك أعطاه مبلغاً كبيراً من المال يزيد على أربعة آلاف دينار مصرية ليسدد دينه ويغطي نفقات معيشته فقال : ما احتجت إلى المال في عمري سوى مرتين(٥).

وذكر المؤرخون المسلمون أمثال سبط ابن الجوزي والذهبي أن ابن نجا برع في علمي التفسير والحديث فضلاً عن الوعظ وليس ذلك فحسب بل أن الناصر صلاح الدين

---

(١) العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار : الفتح بن علي البنداري (بيروت:١٩٧٨م)، ص٢٢٥-٢٢٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج١، ص٢١٩-٢٢٠ .

(٢) البنداري ، سنا البرق ، ص٢٤٦ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام،ج١٢،ص٥١٦ .

(٣) أبو شامة ، الروضتين ،ج١، ص٢٢٠-٢٢١ .

(٤) ابن رجب الحنبلي ، الطبقات الكبرى ،ج١، ص٤٣٧-٤٣٨ .

(٥) ابن رجب الحنبلي ، الطبقات الكبرى ، ج١، ص٤٣٨ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٤، ص٣٤١ .

الأيوبي وأولاه كانوا في كثير من الأحيان يحضرون مجلسه ويسمعون مواعظه ، وكان له الجاه العظيم والحرمة الزائدة[١] وعده القاضي الفاضل بـ ((الشيخ الفقيه زين الدين قدوة الوعاظ جمال الحفاظ ، أدام الله توفيقه ، وسدد إلى خواطر الغافلين تفويفه ، ونهج إلى الخيرات الطرق به وطريقه)) كما يشير القاضي الفاضل أن صلاح الدين كان يكاتب الفقيه ابن نجا في أمور كثيرة وأهمها كان معاركه وحروبه التي يخوضها ضد الصليبيين في بلاد الشام منها على سبيل المثال لا الحصر عندما حرر قلعة حمص من الصليبيين في سنة٥٧٠هـ/١١٧٤م ، كتب إليه رسالة مطولة يصف فيها معركة تحريرها[٢] .

كما أن صلاح الدين عندما قرر الاستقرار والإقامة في بلاد الشام بعث إليه الفقيه ابن نجا رسالة في سنة٥٨٠هـ/١١٨٤م يشوقه فيها إلى مصر ونيلها وخيراتها ومساجدها ومشاهدها ثم ذكر فضائل مصر واستدل عليها بالآيات والأخبار والآداب والآثار، فأجابه صلاح الدين في رسالة أوردها سبط ابن الجوزي وأبو شامة ـ يخبره بأن سكن الشام أفضل ومناخها أجود وأن الله أقسم بها في القرآن ويعاتبه على عدم حنينه إلى وطنه دمشق ويدعوه للانتقال إليها إلى أن ختمها بقوله:((وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض أن يكون المساوي حتى شرع في ذكر المساوي ، ولعله يرجع إلى الحق ويعيد سعد اسعاده ورفاقه إلى الأوفق إن شاء الله))[٣] ومهما يكن من أمر فقد استمر الفقيه ابن نجا يعمل في خدمة الناصر صلاح الدين حتى دخل معه القدس فاتحاً في يوم الجمعة ٢٧رجب سنة٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وألقى في المسجد الأقصى بعد انتهاء صلاة الجمعة التي أعقبت جمعة الفتح أول مجلس للوعظ حضره الناصر صلاح الدين وكبار رجال دولته ذاكراً فضل تحرير بيت المقدس والدروس والعبر المستمدة منه فضلاً عن الآمن الذي تحقق بفضل إرادة الله التي فرجت الكروب وأفرحت قلوب المسلمين[٤] وكانت

---

(١) مرآة الزمان ،ج٨، ص٥١٥ ؛ تاريخ الإسلام ،ج١٢، ص٥١٦ .

(٢) للاطلاع على نصوص الرسائل التي أرسلها الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى الفقيه ابن نجا. ينظر: رسائل القاضي الفاضل ، تحت رقم (١٦) و(١٧) ، ص٨٠-٨٣ ، ٨٤-٨٥ .

(٣) مرآة الزمان ،ج٨، ص٣٨٠-٣٨١ ؛ الروضتين ،ج٢، ص٥٩ . وعن نص جواب الرسالة المطولة التي بعثها الناصر صلاح الدين الأيوبي بقلم القاضي الفاضل إلى الفقيه ابن نجا . ينظر: رسائل القاضي الفاضل، تحت رقم(٤٧)، ص١٥٥ .

(٤) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٧٨-٧٩ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص٣١١ ، ٣١٥ .

وفاته في مصر ودفن عند سفح جبل المقطم في ٧رمضان سنة٥٩٩هـ/١٢٠٠م[١] وتوفي فقيراً ولم يترك شيئاً يذكر من الأموال حتى أنه لم يخلف كفناً يدفن فيه وله بعض أبيات الشعر تصف ختام حياته كان ينشدها في حياته وهي من شعر طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله .

مشيبك قد رضى صبغ الخصاب ... وحل الباز في وكر الغراب

تنام ومقلة الحدثان يقظى ... وما ناب النوائب عنك نائي

وكيف بقاء عمرك وهو كنز ... وقد أنفقت منه بلا حساب [٢]

**رابعاً : الفقيه نجم الدين الخبوشاني**

هو الفقيه الكبير العالم الزاهد نجم الدين أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد الخبوشاني الشافعي الصوفي ، درس الفقه وبرع فيه على الشيخ محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي[٣] وكان يستحضر كتابه المحيط في شرح الوسيط ، وقد صنف على غراره كتاباً سماه تحقيق المحيط الذي تألف من ستة عشر مجلداً وأصله من مدينة نيسابور ، وقد اشتهر بالفضل والديانة وسلامة الباطن كما كان زاهداً متقشفاً في العيش صلباً في الدين ، ومما عرف عنه أنه كان يقول قبل قدومه إلى مصر (( أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عبيد اليهودي ، فنزل بالقاهرة وصرح بثلب أهل القصر وجعل سبهم تسبيحه ، فحاروا فيه فنفذوا إليه بمال عظيم قيل : أربعة آلاف دينار ، فقال للرسول : ويلك ما هذه البدعة ؟ فأعجله ، فرمى الذهب بين يديه ، فضربه وصارت عمامته حلقاً وأنزله من السلم))[٤] .

وعندما قدم إلى مصر في سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ، نزل ببعض مساجدها ، فاتفق أن الخليفة الفطمي العاضد لدين الله رأى في منامه أنه بمصر ، وقد خرج إليه عقرب من

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢، ص٥٣٠ ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ،ج١٢، ص٥١٦ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب،ج٤، ص٣٤١ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ،ج٨، ص٥١٥-٥١٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣، ص٣١-٣٢ .

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٣٠١ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج٢١، ص٢٠٤ .

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ،ج٧، ص١٥ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج٧، ص٢٠٥ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ،ج٤، ص٢٨٨ .

مسجد معروف فيها فلدغه فانتبه مذعوراً واستدعى عابر الرؤيا وقص عليه ما رأى فقال : ينال أمير المؤمنين مكروه من شخص مقيم بهذا المسجد ، فألزم الوالي بإحضار من في المسجد فمضى إليه وأحضر منه رجلاً صوفياً : فسأله العاضد من أين هو ومتى قدم مصر وفي أي شيء جاء فأجابه عن ذلك ، ولم يظهر للعاضد ما يريبه بل تبين منه ضعف الحال مع الصدق فدفع إليه مالاً وقال له : يا شيخ أدع لنا وخلا سبيله فعاد إلى مسجده وبقي فيه حتى قدم أسد الدين شيركوه من دمشق إلى مصر وقام في وزارة العاضد الناصر صلاح الدين الأيوبي وشرع في أسقاط الدولة الفاطمية فاستفتى فقهاء مصر فكان الخبوشاني أشدهم مبالغة في الفتوة وعدد مساوى القوم وسلب عنهم الإيمان وأطال القول في الحط عليهم[١] .

وبرز دور الفقيه الخبوشاني في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي كان قد أولاه الاهتمام والرعاية والاحترام وقربه إليه ، ويتضح دوره في بناء مدرسة لتدريس الفقه الشافعي عند ضريح الإمام الشافعي في مصر كما أحيا شعار التوحيد وبنى أمره على التشديد والتسديد وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان صلاح الدين مجيباً له إلى كل ما يستدعيه ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ووقف على المدرسة التي بناها وقوفاً وأعطاه في بنائها ألوفاً[٢] .

وكان الفقيه الخبوشاني يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقد جاء ذات مرة الأمير مظفر الدين عمر الأيوبي ((وقال له : تقي الدين يسلم عليك . فقال الخبوشاني قل : بل شقي الدين لا سلم الله عليه ، قال : إنه يعتذر ويقول : ليس له موضع لبيع المزر[٣] قال : يكذب . قال : إن كان ثم مكان فأرناه ، قال : ادن . فدنا ، فأمسك بشعره وجعل يلطم على رأسه ويقول : لست مزاراً ، فأعرف مواضع المزر فخلصوه منه ، وعاش عمره لم يأخذ درهما لملك ولا من وقف ودفن في الكساء الذي صحبه من بلاده نيسابور،

---

(١) سهيل زكار ، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (دمشق :١٩٩٠م)،ج٢٥، ص٤٢٧-٤٢٨ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٣٠١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ،ج١١، ص٤٤٠-٤٤١ ؛ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ،ج٨، ص٤١٤ .

(٣) المزر : بكسر الميم هو نبيذ يتخذ من الذرة وقيل من الشعير أو الحنطة . ينظر : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب (القاهرة :٢٠٠٣م)،ج٨، ص٢٧١ .

وكان يأكل من تأخر صحبه من بلده)) [١] وقد اختلفت الروايات التاريخية في تحديد سنة وفاة الفقيه الخبوشاني ، فالأولى ذكرت أنها كانت في مصر ودفن فيها في ذي القعدة سنة٥٨٧هـ/١١٩١م[٢] أما الرواية الثانية فأشارت أن وفاته كانت أيضاً في مصر ودفن عند قبر الإمام الشافعي رحمه الله ولكنها كانت في تاريخ مغاير هي سنة٥٨٦هـ/١١٩٠م[٣] والراجح أن الرواية الأولى هي الأصح نظراً لاتفاق المصادر المعاصرة قياساً بالرواية الثانية المتأخرة زمنياً والتي أوردها كل من اليافعي وابن العماد الحنبلي .

وفي ختام البحث يتضح أن الفقهاء الذين تناولتهم الدراسة كانوا قيادات دينية وعلمية وسياسية وعسكرية ودورهم لم يقتصر على حمل السلاح ومقاتلة العدو الصليبي المغتصب للأراضي الإسلامية وانما كانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامي بين الجند يبثون الشجاعة في نفوسهم ويحذرون الجند من الفرار ويذكرونهم بما أعده الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم ويستشهدون في ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ليرفعوا من روحهم المعنوية ويزيدوا من تصميمهم ومصابرتهم في الجهاد لطرد المحتلين الصليبيين ، وذلك شأن جميع المعارك والفتوحات التي خاضها وحققها صلاح الدين الأيوبي وهذا جعل لهم مكانة كبيرة في دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي أولاهم اهتماماً ودعماً غير محدود بالعطف والرعاية والاحترام والتقدير في الجانبين المادي والمعنوي ، كما أن أراءهم كانت موضع احترام وتقدير من الناصر صلاح الدين الأيوبي واستشارتهم واجبة بل وملزمة في جميع الأمور الشرعية التي تتصل بمختلف نواحي الحياة في الدولة ، كما أصبح لهؤلاء الفقهاء السيطرة الروحية على أذهان الناس وحصلوا على مكانة رفيعة في المجتمع لدرجة أنهم أثروا تأثيراً بالغاً في الأمة والدولة آنذاك .

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج٢١، ص٢٠٧ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ،ج٨، ص٤١٤ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج٢١، ص٢٠٧ .

(٣) أبو محمد عبدالله ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان (الهند:١٩٧٠م)،ج٣، ص٤٣٣ ؛ شذرات الذهب ،ج٤، ص٢٨٨ .

# *Jurisprudent of Excellency*
# *AL –Nasir Salah AL-Deen AL-Ayoobi*

**Dr.Musab . H. Najim Al-Zaydi** *

**Abstract**

This paper aims at sheding light on the life of a number of Muslim jurisprudents and their scientific , political and military role during the age of Ayoobian nation in the era of AL-Nasir Salah AL-Deen AL Ayoobi(565-589A.H./1169-1193A.D.) and the jurisprudents Diyah AL deen Eesa AL-Hakari (died:585A.H./1189A.D.) the jurisprudents Zein AL-Deen ALibin Naja(died:599A.H./1200A.D.)and the jurisprudents Najim AL-Deen AL-Khaboshani (died: 587A.H./1191A.D.).

It has become clear throughout the paper that the jurisprudents had a big stature in the nation of AL-Nasir Salah AL-Deen AL-Ayoobi Who has given them extreme necessity and sport with care, Kind nees ,respect and appreciation in both material and spiritual sides Their open ions have also taken in AL-Ayoobis consideration Their counsels have also been necessary in all legal issues which have connection with all sides of life in the nation, Those jurisprudents have got the spiritual control on the people ’s minds and got a high stature in Islamic society to the extent that they have made a great influence on people and nation .

*